سيطرة نفوذ الولاة . ودخل هؤلاء بدورهم في حروب محلية سعيا وراء توسيع منطقة نفوذ الواحد منهم على حساب الاخر . ولذا تميزت تلك الحقبة بصراع دائم بين الولاة تتخلله تحالفات فيما بينهم او مع العشائر القروية او القبائل البدوية ضد اطراف اخرى من ولاة او زعامات محلية او بدوية . وانعدم الامن اثر ذلك . وساهمت الدولة العثمانية بدورها في زرع الفوضى بضعفها وبامتناعها عن بناء شبكة مواصلات توفر الحركية لقوات الجند . وانعزلت المناطق عن بعضها ونشأت تجمعات سكانية منفصلة، تقف بينها الجبال الوعرة والمستنقعات الكثيفة . ويحدثنا الرحالة تومسون(٦) وقد زار فلسطين مرتين (عام ١٨٣٥ و١٨٥٩) عن خطورة التجول في كثير من ربوع فلسطين . اذ كان السفر بواسطة الدواب يأخذ وقتا طويلا . وكما ذكر سابقا اعتمد الولاة في خلافاتهم الدامية على العشائر القروية وخصوصا على القبائل البدوية المتعاظم شأنها لمرور طريق الحج في أراضيها وصعب على الدولة العثمانية اخضاعها والقيام بجردات ضدها لمحاذير فشلها . فقد ينتقم البدو من قافلة الحج فيهتز اثر ذلك كرسي الوالي بل عرش السلطان(٧). وكانت قبيلة الروالة وخصوصا بني صخر اخطر القبائل السورية . عمدت الدولة العثمانية الى دفع الخوة الى هذه القبائل مما شجعها على ابراز سطوتها، وحتى الى تقوية نفوذها من خلال ربط العشائر الصغيرة بها. وكان من جراء سطوتها هذه اكتساحها لسهول فلسطين وهضبات الجليل . فهرب الفلاحون الى الجبال حيث تتوفر الحماية الطبيعية والجماعية . ويتأكد لنا هذا الوضع من خلال القاء نظرة على خريطة بعثة صندوق استكشاف فلسطين التي وضعت بين ١٨٧٢ و ١٨٧٨ ، اذ نرى ان سهول فلسطين وخاصة المنطقة الممتدة بين يافا وغزة لا تحضن الا عددا قليلا جدا من القرى ، بينما تقع معظم القرى في أعالي او منحنيات الجبال والهضبات . ويؤكد ذلك احد اعضاء البعثة « تتواجد معظم قرى فلسطين في المنطقة الجبلية »(٨). ويصف غرانت نمط بناء القرى الجبلية لاضافة مزيد من المقدرة الدفاعية بقوله « شيدت البيوت في القرى الصغيرة بمحاذاة بعضها بعضا ، كأبنية المدينة وتبدو القرية هكذا وكأنها قسم مشطور عن المدينة »(٩). وفي كثير من الاحيان كان بيت شيخ القرية يعلو البيوت الاخرى ويستعمل كبرج للمراقبة ، لينذر الحارس الفلاحين العاملين في الحقول المجاورة في حال حدوث اي طارىء .

بعد استتباب الامن خلال الحقبة الاولى من عهد ابراهيم باشا نزح قسم من الفلاحين الى السهول واعادوا تشييد قراهم السابقة . ولكن بعد خروج ابراهيم باشا وانتشار الفوضى مجددا في سوريا والتي ساهمت في اشعال نارها الحروب القيسية اليمنية ترك هؤلاء الفلاحون قراهم في السهول وصعدوا الى المرتفعات . ويقدم الرحالة تومسون امثلة على ذلك . فقريتا العفولة والفولة في مرج بن عامر والتي شاهدهما مزدهرتين حوالي عام ١٨٣٥ اصبحتا عام ١٨٥٩ خرابا . وكذلك شاهد في حالة خراب كامل قرية المقيبلة وفي شبه خراب قرية حكمه وتقعان قرب جنين جهة المرج . وكانت مدينة بيسان قرية صغيرة تحتوي على حوالي الف نسمة(١٠). عانى الفلاحون الذين بقوا في السهول وضعا سيئا : وجب عليهم دفع الخوة الى البدو وتحمل في نفس الوقت غطرستهم التي وقفت حائلا دون تحذير احد منهم لعبثه بالمزروعات . فحتى عام ١٨٧٨ كانت طبريا تدفع خوة لاحد شيوخ بني صخر . وكانت قرية الجاعونة في الجليل الاعلى تدفع خوة الى الوحش شيخ عرب الزنغرية(١١). واما بدو الروالة فكانوا يجتاحون حوران ويضطهدون فلاحي قرية جب يوسف في الجليل الاعلى وبيت جن ويفنيل في الجليل الادنى(١٢)، بل كانت مدينة الناصرة نفسها معرضة لغزوات البدو . يذكر القنصل فين عن غزوة بدوية على الناصرة والقرى المجاورة ، ان مجمل ما خسرته من حيوانات وعلف ومتاع بلغ حوالي ٢٠٠ الف قرش(١٣).